مقدمة عامة

" مقدمـــة عـــامة "

يعالج هذا البحث موضوعاً على جانب كبير من الأهمية وهو " الفنـاء عند صوفية المسلميـــن والعقائد الأخرى " . دراسة مقارنـــة .

Transformation there in the Moslem Mysticism and Religions' Mysticism.
(Comparative study).

وموضوع الفناء هو من الموضوعات الرئيسية للتصوف الإسلامى ، بل هو المحور الرئيسى الذى تدور حوله نظرياته المختلفة .

ولقد شكلت الجوانب الأساسية للفناء مصدراً خصباً لعديد من الاتجاهات النفسية والأخلاقيـــة والعرفانية والوجودية أيضاً .

وبرغم الأهمية الواضحة للموضوع وأبعاده المختلفة والدور الذى لعبته ظاهرة الفناء فى تشكيـــل جمل نظريات التصوف الإسلامى .

وبرغم على بما يكتنف الموضوع من صعوبات ، وذلك بسبب اتساع المجال الذى يشغله فى التصوف الإسلامى وعمق المعانى التى يهدف إلى إبرازها ، وتعدد المصطلحات التى ترسم الصورة النهائيـة لحال الفناء ، والمرادفات اللغوية الكثيرة لمصطلح الفنـاء ، وكذلك باعتباره حالة وجدانية لا يصلـح فى دراستها إلا منهج الاستبطان النفسى ، رغم كل هذه المحاذير فإنى قد أقدمت على اختيـار الموضوع ، وجمعت من مصادر البحث ما أمكننى سواء من المصادر الصوفية الأصلية أو من الدراســات الحديثة والمعاصرة ، ولم يقف جهدى عند حد قبول هذه الآراء على ماهى عليه بل لقد حاولـــت قدر طاقتى مناقشة هذه الآراء والتعرض لها ، ثم إنى قد حاولت الاستفادة بشكل علمى من المصـادر الأجنبية للبحث . كما لا يغفل البحث بعض المقارنات الحيوية بين الفناء عند صوفية المسلميـــن والعقائد الأخـرى . وكذلك التتبع التاريخى لجذور مصطلح الفناء ، أين نشأ وكيف تطـــور ؟ وعلاقته بماورد فى الكتاب والسنة مع المقارنة بين المعانى للمصطلح فى المصادر الأجنبية واشتقاقاتـه اللغويـــة .

ومن الضرورى فى هذا الصدد أن نشير إلى تعريفات الفناء عند صوفية المسلمين : للفناء عنـــد صوفية المسلمين تعريفات كثيرة وتعدد هذه التعريفات وتباينها راجع إلى اختلاف أذواقهم فيـــه ، وفهمهم لمعانية ، غير أنه مما لا شك فيه أن التعريفات فى جملتها توضح التطور التاريخى لفكرة الفنـاء من الناحيتين التاريخيـة والروحية عند صوفية الإسلام بالرغم من أنها غالباً ما تشير إلى وجهة نظـره وفى مايعنيه . وهو يعطينا فكرة واضحة عن الجوانب الذاتية التى تنطوى عليها تعريفات الصوفيـــة لحال الفناء مع ملاحظة أن كلمة " فناء " لا تشير فقط إلى ناحية واحدة من التجربة الصوفية ولا هـــى تقتصر على المعنى السلبى للكلمة وذلك لأن الفناء عند الصوفية وثيق الصلة بالبقـاء .

فالفناء نفى وسلب ، والبقاء إثبات وإيجاب ، ولا يقوم النفى دون إثبات . ولا يستقيم السلبى دون إيجابى . فهى ألفاظ لا يفهم الواحد منها منفصلاً عن الآخر ولا نفهم الحالة الصوفية إلا بوضوح جانبيها وجلائهما .

وهذا الارتباط الشديد بين اللفظ ومقابله يمكن توضيحه على النحو التالى : إذا كان الفناء عن المعاصى كان البقاء بالطاعة ، وإذا كان الفناء عن الصفات المذمومة كان البقاء بالصفات المحمودة . ففناء الغفلة يعقبه الفناء بالذكر ، والفناء عن العبودية يعقبه فناء فى المعبود ، والفناء عن الحب يعقبه فناء بالمحبوب . وهكذا تتعاقب الصفات كما تتعاقب الأحوال فلا تسكن صفة ولا يستقر حال بل يظل الصوفى مترقياً وتاركاً صفة من صفات البشرية ليكتسب صفة من الصفات الإلهية ، وصاعداً من حال إلى حال أعلى وأسمى .

وقد اعتبر القوم أسمى أنواع الفناء ذلك الذى يعود منه الصوفى إلى حال البقاء فلا يستغرقه الفناء ولا يستهويه بل يعود إلى البقاء ليحفظه من الزلل وينجيه .

فالعودة من الفناء إلى البقاء دليل على إثبات الإثنينية بين الله والعالم حيث يظل الحق قائماً بصفاته مفارقاً بذاته ويظل الخلق خلقاً غير مماذج للإلهية أو مختلطاً بصفات الربوبية .

أما النوع الذى أنكره بعض كتاب التصوف من أمثال الطوسى والقشيرى والسهروردى وبعض الفقهاء كابن تيمية هو القول بفناء الذات فى الوحدة المطلقة ونفى التعدد والتكثر عن الوجود بكل اعتبار ويعبر عنه بالفناء عن وجود السوى ويؤدى إلى القول بوحدة الوجود . وهذا ما أثبتناه عند الحديث عن مفهوم الفناء فى العقائد الهندية القديمة ، والفكر اليونانى ، وكذلك مفهوم الفناء فى العقيدتين اليهودية والمسيحية . وكلها اتجاهات نبذها الإسلام .

ونحن نلاحظ أن ثمة تعريفات للفناء عند الصوفية تتجه إلى الجانب الأخلاقى باعتباره الأساس الذى اعتدوا به فى علاقاتهم بالخالق سبحانه وتعالى .

وهناك تعريفات أخرى تتجه إلى الكشف والإشراق فيشار إلى الفناء على أنه الحال الذى يتحقق فيه السالك بالمعرفة الكشفية التى لا يمكن أن يحظى بها العاديون من البشر .

وهناك تعريفات من نوع ثالث تتجه إلى الوجدان الصوفى فتفصح عما يتمكن فى هذا الوجدان وما يضبط مشاعر الصوفى بدرجة تفوق كل تصور فتجعله يتحمل كل ماهو مؤلم بل يشعر باللذة من خلال الألم . يصل بهذا إلى حال من التوازن النفسى ، وهذه التعريفات هى التى تشكل فى مفهومها الجانب النفسى لحال الفناء إذ تصف مايحتمل فى باطن الصوفى من نوازع وأسرار وترسم لنا كيفية الوصول إلى حالة من الانسجام الروحى والتوافق الباطنى الذى يحظى به أولئك الذين خبروا بالحال .

منهج الباحث :

لما كانت الفصول الثلاثة الأولى من هذا البحث تتناول استعراضاً عاماً لمفهوم الفناء بدايته بالعقائد الهندية القديمة ونهاية بالعقيدة المسيحية بما يلزم من تمحيص للوقائع وتحديد للمفاهيم لذلك فقد استخدمنا المنهج التاريخي مع الاستعانة ببعض التحليلات والمقارنات التي تقوم على مواجهة النصوص نفسها .

ولما كانت الفصول الباقية من هذا البحث تقوم على دراسة تحليلية للفناء عند صوفية المسلمين لذلك فقد ركزنا فيه بصورة أكثر على المنهج التحليلي ، وبذلك يصبح المنهج المتبع في الدراسة ككل هو : " المنهج التاريخي التحليلي المقارن " .

استخدمنا المنهج التاريخي في بعض المواقع كلما دعت الضرورة لرد فكرة إلى أصلها أو بيان تطور فكرة أخرى منذ بدأت وكيف تطورت .

أما المنهج النقدي ، فقد اكتفينا في معظم أرجاء البحث بتوجيه بعض الانتقادات من جانبنا بقدر ما يتوصل إليه تحليلنا للفناء عند صوفية المسلمين وأصحاب العقائد الأخرى . ولم نكتف بذلك بل قمنا بعرض الانتقادات من جانب الآخرين في أوسع نطاق وعلى سبيل الاستشهاد لتأييد رأي نراه أو دحض رأي آخر يراه من يختلف معنا في التفسير حتى لا تختلط الانتقادات . ويختلط الأمر بالتالي على القارئ . إلا أن هذا لم يمنعنا من الاعتماد على المنهج النقدي تماماً .

استخدمنا إذن منهجاً تاريخياً تحليلياً مقارناً بصفة عامة ، تاريخياً في بعض الجوانب نقدياً في جوانب أخرى كلما دعت الضرورة لذلك ، وتوخيت أن تكون أوجه المقارنات التي أوردتها في ثنايا عرضي لهذا الموضوع ملائمة لسياق البحث .

ويرجع اختياري لهذا المنهج دون غيره إلى ما تتطلبه طبيعة البحث في مثل هذا الموضوع المتشابك وما يتضمنه من تداخل وترابط الأفكار والتصورات ، الأمر الذي استدعى الإشارة إلى الفناء منذ بداياته الأولى .

فاندفعت دارساً لهذا البحث من منظورين :

الأول : أفقي : اقتضته طبيعة البحث للالمام بمفهوم الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى .

الثاني : رأسي : وهو المنظور الأهم لدينا حيث اقتضته طبيعة البحث ، عندما قسمنا البحث إلى فصول يمثل الواحد منها عنوان موضوع بعينه ، ومن ثم رحنا نجمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع من هنا وهناك .

وبناء على ما تقدم رتبنا فصول الرسالة على الوجه التالي :-

الفصل الأول : جاء بعنوان " مفهوم الفناء في العقائد الهندية القديمة "

استعرضنا فيه المباحث التاليـــة :

أولاً : العقيدة الفيديـة . ثانياً : العقيدة البراهمانيـــة .

ثالثاً : الصلة بين الفناء والتناسخ فى العقيدتين البراهمانية والجينيـــة .

رابعاً : العقيـدة البوذيـــة .

وتعرضنا فى هذا الفصل لمفهوم الفناء من وجهة النظر الهندية . وفى ختام هذا الفصـــل اعتمدنا على أوجه المقارنـات بين مفهوم الفناء فى هذه العقائد ومفهومه فى العقيدة الإسلاميـة . فإذا كان الفناء مرحلة سلبية وقف عندها الهنود فإن البقاء عند صوفية المسلمين مرحلة إيجابيـــة عتبتها الفناء . أى أن التصوف الإسلامى بعد أن وصل إلى مقام الفناء استمر بعدها إلى أن أكد الصوفية مرحلة البقاء بعد الفناء .

من هنا نؤكد أن البقاء مقام من المقامات الهامة التى يمتاز بها التصوف الإسلامى عن غيره مـــن أنواع التصوف الأخرى .

الفصـل الثانى : ويدور حول : " الفناء فى الفكـــر اليونانـــى "

عرضنا فيه : أولاً : الفناء عند فلاسفة اليونـــان .

ثانياً : الفناء عند الأفلوطينيـة المحدثـــة .

وهنا يجب توضيح العلاقة بين العقيدة الهندية والفكر اليونانى بصدد المنهج : فإذا كـــانت الفلسفة الهندية بعيدة عن المنهج العلمى ممتزجة امتزاجاً شعرياً بالدين ، فإن الفلسفة اليونانيـة تمسكت بالمنهج العلمى مع الحقائق لا مع المجازات الشعريـة* .

وهذا الفصل يناقش بشىء من التركيز والدقة الفناء عند أصحاب هذا الفكر . والذى يعنينـــا هنا هو البحث عن حقيقة الفناء بين الفكر اليونانى والعقيدة الإسلامية من هنا انصبت الدراســـة على أوجه المقارنة بينهما بصدد الفناء .

وألحقنا هذا الفصل بتعقيب يوضح النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراســـة .

الفصل الثالـث : ويأتى متناولاً : " الفناء فى العقيدتين اليهودية والمسيحيـة "

وينقسم إلى مبحثين : أولاً : العقيدة اليهودية ثانياً : العقيـدة المسيحيـــة .

وغرضنا من هـذا الفصل الإشارة إلى مفهوم الفناء فى العقيدتين اليهودية والمسيحيـــة مقارنـــاً بينه وبين مفهوم الفناء عند صوفية المسلمين .

وقبل أن أنهى بحثى من هذا الفصل أؤكد أنى التزمت منهج العقل وهو منهج القرآن الكريـم حكماً فى كل ماتعرضت له ، بعيداً كل البعد عن أى حكم ظنى ، فالظن كما يقول منهج العقـــل القرآنى لايغنى عن الحق شيئاً .

* يراجع فى ذلك القفطى : أخبار الحكمـــاء ص : ٢٦٦

الفصل الرابع : ينصب هذا الفصل على دراسة خصائص الحياة الروحية عند الأنبياء والصحابة والتابعين . ولقد قسمنا هذا الفصل إلى عدد من المباحث نجملها على الترتيب التالى :-

أولاً : أحوال ومقامات الأنبياء . ثانياً : الإسراء والمعراج .
ثالثاً : الفناء والبقاء عند الصحابة . رابعاً : الفناء والبقاء عند التابعين .

الفصل الخامس : أفردنا هذا الفصل لدراسة : " سمات الفناء وخصائصه عند صوفية المسلمين " . استهللناه بمقدمة ، وخصصناه بالمباحث التالية :

أولاً : تعريف الفناء . ثانياً : أول من تكلم فى علم الفناء . ثالثاً : المعنى النفسى للفناء .
رابعاً : المعنى العرفانى للفناء . خامساً : المعنى الأخلاقى للفناء .
سادساً : درجات الفناء . سابعاً : أقسام الفناء . ثامناً : درجات العارفين .
تاسعاً : التوحيد . عاشراً : الولاية . حادى عشر : التدبير
ثانى عشر : اليقين . ثالث عشر : الذكر . رابع عشر : الدعاء
خامس عشر : الفناء والبقاء .

الفصل السادس : موضوع هذا الفصل هو : " الفناء والأحوال عند الصوفية " وسوف نتناول فيه أهم الأحوال عند الصوفية موضحين علاقتها بالفناء .

ومباحث هذا الفصل جاءت على الترتيب التالى :-

أولاً : الغيبة والحضور . ثانياً : السماع . ثالثاً : الوجد . رابعاً : السكر والصحو .
خامساً : الشطح . سادساً : الجذب . سابعاً : العماء أو الحضرة العمائية .
ثامناً : الصعق . تاسعاً : السفر . عاشراً : الفرق والجمع . حادى عشر : الأنس .
ثانى عشر : التلوين والتمكين . ثالث عشر : القبض والبسط . رابع عشر : القرب .

الفصل السابع : يتناول هذا الفصل : " الفناء والمقامات عند الصوفية " ويأتى مقسماً إلى عدد من المباحث نرتبها فيما يلى :-

أولاً : التوبة . ثانياً : المجاهدة . ثالثاً : الزهد . رابعاً : الورع . خامساً : الخوف والرجاء . سادساً : الفقر . سابعاً : الصدق . ثامناً : التوكل . تاسعاً : الصبر .
عاشراً : الرضا . حادى عشر : الشكر . ثانى عشر : المحبة ثالث عشر : التقوى .
رابع عشر : الإخلاص . خامس عشر : الإحسان .

تلك هى الموضوعات الرئيسية التى أردت أن أعرض لها فى إطار دراستى لموضوع :

" الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى " . دراسة مقارنة .

وأخيراً : خاتمة ونتائج عامة للبحث : وفى نهاية البحث قدمنا النتائج التى أمكن التوصل إليها من خلال ما استعرضناه من موضوعات معرضاً فيها وجهة النظر النقدية بالإضافة إلى ماتضمنه البحث من استنتاجات ٠

وقد ذيلنا الرسالة بقائمة تحوى أهم المراجع التى استخدمناها سواء أكانت العربية منها أم الأجنبية ، بالإضافة إلى مجموعة المراجع والأصول التى اعتمدنا عليها ٠